عالم المولد

٢
١٩٨٢

مجلة تراثية فصلية

WWW.ATTAWEEL.COM

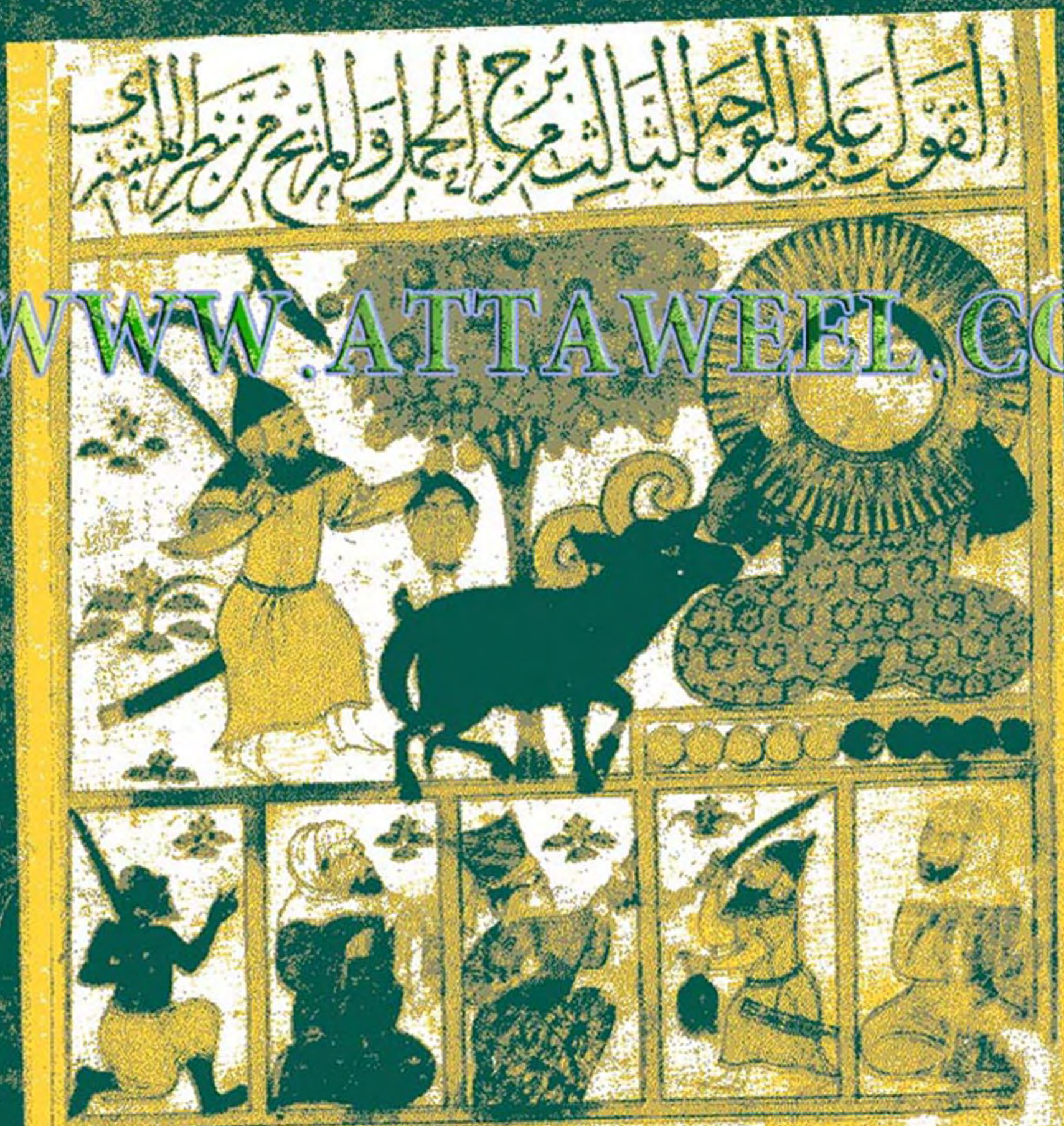

أسباب الولادة وكيفيتها

ظاهرة الطباق دلالة نفسية في شعر المتنبي

بقلم الدكتور
عبد الفتاح صالح نافع
جامعة اليرموك ـ دائرة اللغة العربية
اربد ـ الاردن

فن المتنبي صورة من حياتـه :

المتنبي احد الشعراء الذين ارتبط فنهم بحياتهم ارتباطا وثيقا ؛ فحياته وفنه لا فاصل بينهما . وهو احد الشعراء الذين اضطربت بهم الحياة ، فاضطربت نفوسهم تبعا لاضطرابها. وجاءت خلجات نفسه وذبذبات روحه صدى وتجاوبا لحياة مليئة بالحزن والفرح ، بالامل والالم . تجربته تنبع من اعماق كيانه ، يستبطن ذاته ويصورها بأكثر دقائقها ناظرا الى المجتمع من خلال حياته الخاصة وتجاربه . كانت حياته صراعا ونضالا ومعاناة منذ نعومة اظفاره في الكوفة الى ان لقي مصرعه في دير العاقول . كان حركة لا تعرف السكون ونشاطا لا يدب اليه الخمول ، فاستمد من الفشل هزيمة ، ومن الاخفاق طموحا . وبين الفشل والنجاح كانت نفسه أبدا حائمه لا تستقر ولا تهدأ ، تحلق احيانا الى اعلى القمم ، وتحط بها الحياة تارة الى الاعماق فاذا فنه العظيم يعبر عن صراعه المأساوى في لوحات خالدة هي قطع من نفسه وخواطره وهي صور لكل مايعتمل في هذه الحياة المضطربة وما يؤثر فيها على النفس الانسانية . كان شعره معرضا لكل ما تعتلج بـه النفس في هذه الحياة ، في جهرها ونجواها وفي شوقها وانقباضها وفي آلامها وآمالها (١) لم يكن في هذا شاعر نفسه أو منكفئا على ذاته ، وانما كان شاعر الناس كل الناس ينظم على حسب اهوائهم وطبائعهم فيخاطب كل نفس بأسرارها ويكشف لكل سريرة مطوى اخبارها(٢) .

انطلق من ذاته الفردية الى الذات الاجتماعية يتغنى احداث البيئة والعصر ، يتغنى احزانه واتراحه وأمانيه فعاش في صراع دائم بين الواقع والمثال . وكان لحياته المضطربة اثر كبير في توجيه عاطفته ، فأخذ يبحث في داخل نفسه وينقب في اعماقه ساعيا نحو الامثل . ومن النجاح والفشل ، ومن الامل واليأس ؛ ومن الحزن والسرور انبثق لديه الفن ؛ فكان فنه صورة لنفسه المضطربة المتناقضة القلقة التي لا تستقر على حال . وما أنس حياة أولئك الفنانين الذين يحيون مثل هذه الحياة انهم يرغبون في كل شيء ولا يرضون عن اى شيء ، وبين الطلب والنفرة والشغب والزهد والراحة والالم والغبطة والندم يحيون حياة لا تستقر(٣) .

ولكن كم نحن سعداء لان المتنبي عاش مثل هذه الحياة ، وكم نحن فرحون لشقاء المتنبي وآلامه ، فمن شقائه وألمه ومن اخفاقه وفشله ، ومن اصطدام آماله باليأس كل اليأس خلق لنا الفن ، وصدق حين قال « مصائب قوم عند قوم فوائد » كان طبيعيا ان تنعكس حالة المتنبي النفسية على شعره ، فتظهر حياته في فنه مضطربة متناقضة في كثير من الاحيان ، فالتعبير عن الشعور يحتاج الى صور متعددة مضطربة متشعبة ، والصورة في حقيقتها ليست

(١) ينظر مطالعات في الكتب والحياة ٢٠٧ .

(٢) ينظر مقال مصطفى جواد في مجلة المجمع العلمي العربي م ٢٢ ، ١٩٤٧ ومقال علي الجارم في الهلال اغسطس ١٩٣٥ .

(٣) ينظر في هذا الصدد ما كتبه العقاد في الفصول ٢٢٢ .

WWW.ATTAWEEL.COM

سوى مجموعة متناقضات (٤) وافتقار الشخص تختلف تبعا لحالته الوجدانية . والصورة تولد مع الفكر وترتبط به ، فتعبر عن فكر صاحبها في سعادته وشقائه ، في سروره وألمه . والفنان العظيم هو الذي يوقظ لدينا الاحساسات الرفيعة والدنيئة معا(٥) ومهمة الفنان ان يجمع في فنه كل ما احتوته الألفاظ من قوة التعبير والتصوير وكل مامن شأنه ان يساعد على التوصيل بحيث يستثير الخيال ويصرفه كيفما يشاء (٦) فهذا التناقض او الاتجاهات العكسية التي نجدها لدى الفنانين احيانا ليست دليل ضعف او فتور عاطفة ، بل هي قد تكون مظهرا من مظاهر العبقرية وروعة الفن .

والمتنبي احد الشعراء الذين بدت ظاهرة التناقض واضحة جلية لديه ، بل غلبت على كثير من اشعاره في مختلف ادوار حياته بحيث يمكن القول بانها اصبحت تمثل لازمة شعرية لديه ، يبثها في غزله وفي مدحه وفي هجائه وفي رثائه ، فاذا هي تمثل طبيعة نفسية لديه ، واذا هي دلالة واضحة من مشاعره ، واذا التناقض في معاني شعره اتساق في معاني عواطفه وتعبير صادق عن احساسه وضميره وحاجة نفسه(٧) اين تكمن هذه الظاهرة في شعره ؟ ما دلالتها النفسية ؟ هل قصدها المتنبي من اجل ان يزيد معانيه جمالا ام انها صدرت عنه صدورا طبيعيا لتنقل اهواء نفسه وميولها المضطربة المتناقضة ؟ .

ظاهرة الطباق في شعر المتنبي :

تنبه الدكتور طه حسين الى ظاهرة الطباق في شعر المتنبي ، واعتبرها مظهرا اساسيا في فنه ، لما توفره من جمال موسيقى يؤثر في الذوق والعقل والحس جميعا . وان المتنبي في هذا كان يتكلف الفن تكلفا ويجهد نفسه فيه ، فالظاهرة لديه ناجمه عن قدرته في التوفيق بين الالفاظ المتضاده والمعاني المتضاده (٨) .

وقد لاحظنا من دراستنا لهذه الظاهرة انها ترتبط ارتباطا وثيقا بحالة المتنبي النفسية . وانها تصور في كثير من الاحيان تناقضات داخلية كان يعيشها الشاعر . وجمال الظاهرة وما تولده من موسيقى انما هو ناجم في الغالب من انها كانت تعبيرا صادقا لأحاسيس داخلية يعانيها الشاعر او بسبب تجاربه المريرة التي كثيرا ما كانت تخفق فيصطدم لديه الفال بالتشاؤم والامل باليأس والنجاح بالاخفاق . ولعل هذا ما جعل الطباق لديه مظهرا من مظاهر نبوغه(٩) فحياة المتنبي كانت ظاهرة فريدة من الاضطراب والتناقض ، والابداع بمعناه الدقيق انما يقوم على حياة ملؤها مشكلات تثير القلق والاضطراب(١٠) . بل ان الفن من صفاته ان يحمل في اعماقه التوتر والتناقض وعدم التفاوت ؛ ويبقى هدف الشعر ان يخلق من اللغة نظام علاقات وثيقا وذلك بالتعرض للقوتين النظام والفوضى ليس باستبعاد احداهما بل بايجاد توازن سريع(١١) . وتبقى الصفة الرئيسية للشاعر ليست في حصوله على عالم جميل يتعامل معه ولكن في قدرته على رؤية ما تحت الجمال والقبح ، ان يرى الملل والرعب والعظمة(١٢) . واذا كان الاسلوب هو الرجل كمايقول لنجينوس Longinns (١٣) واننا عن طريقه نتعرف الى تقاطيع الذهن وملامحه وننفذ الى الشخصية بصدق اكثر مما ننفذ اليها عن طريق ملامح الوجه (١٤) ، فلعل المتنبي هو اكثر الشعراء الذين يدل اسلوبهم عليهم ، فشخصيته تقف ثابتة وطيدة خلف كل بيت ، بحيث يمكن القول ان له ادبا خاصا مميزا يستطيع الانسان ان يتعرف اليه حيثما قرأ .

ولما كان تيار النقد الحديث يعتمد في تقويم الشعر على اتجاهات مختلفة منها اعتماده على اسس نفسية ووجدانية ، فسنحاول ان نتبع مراحل حياة المتنبي وانتقالاته ، وان ندرس ظاهرة الطباق لديه على هذا الاساس ؛ آخذين في الاعتبار ان هذه الظاهرة كانت وليدة حياته القلقة ونتاجا لازما لنفسيته المضطربة ولمزاجه الحاد ، الذي كان كثيرا ما يصطدم بغير ما يأمل فيرتد ساخطا يائسا ليبدأ الأمل من جديد . ومع ايماننا القاطع بان الفن لا يقتصر على عصر دون عصر ولا يتحدد بفترة ما وان العبقرية لايمكن ان تتقيد بالقواعد فان نظرتنا لحياة المتنبي وانتقالاته لا تعنينا الا من الزاوية التاريخية وان تحديدنا لأطوار حياته الزمنية لا نورده الا لنرى

---

(٤) مسائل فلسفة الفن المعاصرة ١١٥ .
(٥) المرجع نفسه ٨٨ .
(٦) Principles of Literacy Criticism 37
(٧) ينظر المقتطف عدد يناير ١٩٢١ .
(٨) مع المتنبي ٥٠ .
(٩) ابو الطيب المتنبي ـ بلاشير ٩١
(١٠) Feelings and Emotions 387
(١١) The Structure of Poetry 85
(١٢) The Use of Poetry and The Use of Criticism 106.
(١٣) Principles of Literary Criticism 138.
(١٤) The Art of Literature 17.

كيف كانت ظاهرة الطباق تعبر عن نفسيته في مختلف حالاته وفي شتى أوضاعها . وقد لاحظنا ان بالامكان وضع حياة المتنبي ضمن اربعة اطوار :

١ ـ مرحلة الصبا والشباب : وفي هذه المرحلة يبدو الشاعر فتى ثائرا طامحا تجيش نفسه بالعظمة فلا تجد لها منفذا ، وتضيق بالدهر فلا تقدر عليه ، فينطلق لسانه مرددا شكوى قلبه وهم نفسه وكانه في هذا الترديد الشاكي يرمي الى ان يريح نفسه المعذبة المتألمة وان يجد لطموحاتها متنفسا . حياة المتنبي في هذه الفترة غير مستقرة ولا ثابتة ، آماله اعظم من قدرته ، وهمته تسقط دوما في دوامة الاخفاق ، يحاول ان يصل فيفشل ، فاذاهو شريد بائس يائس يسعى وراء الرزق هنا وهناك تفيض اشعاره كآبة وشكوى وحزنا وذما . واذا هذه المشاعر اليائسة الحزينة والعواطف المضطربة المتناقضة تنعكس على فنه واذا ظاهرة الطباق تبدو واضحة جلية ، تعبر عن هذه النفسية المتألمة الآملة الواثقة ثقة المنتصر رغم انها تتحطم ابدا على صخرة من النحوس والعقبات :

ضاق صدري وطال في طلب الرز
ق قيامي وقل عنه قعودي
ابدا اقطع البلاد ونجمي
في نحوس وهمتي في سعود(١٥)

وكم كان هذا الانسان يألم من واقعة ، وكم كان يحس ان هذا الواقع بحاجة الى التغيير . لقد انقلبت الاوضاع واصبحت الامور تجرى في غير مجراها الصحيح ، فالبشر في طاعتهم العمياء للحكام اضحوا غنما ، والجود اضحى كلاما زائفا والاغنياء باتوا فقراء في مروءتهم . وكل هذه الحقائق المقلوبة والاوضاع المعكوسة لا ترضي رجلا ثائر النفسية كالمتنبي فانطلق يعبر عنها متخذا من الطباق وسيلة تخدم مشاعره واحزانه :

ارى اناسا ومحصونى على غنم
وذكر جود ومحصول على الكلم
ورب مال فقيرا من مروته
لم يثر منها كما اثرى من العدم(١٦)

لقد صغر الناس في فكرهم واعمالهم ، وغفل الملوك فغطوا في نوم عميق تاركين للاجانب السلطة في كل شيء :

وذهر ناسه ناس صغار
وان كانت لهم جثث ضخام
ارانب غير انهم ملوك
مفتحة عيونهم نيام(١٧)

واذا كان المتنبي قد شاء قدره ان يعيش وسط هؤلاء القوم فالذهب الخالص يستخلص من التراب :

وما انا منهم بالعيش فيهم
ولكن معدن الذهب الرغام

وسحقا للزمن الذى كتب له الشقاء ورفة الحال ووقف دائما يحد من طموحه ويقف حائلا دون تحقيق آماله وامانيه :

لم الليالي التي اخنت على جدتي
برقة الحال واعدرني ولا تلم(١٨)

وتتخذ ثورة المتنبي ضد الوضع الاجتماعي أبعادا خطيرة ، فالتناقض الخطير الذى يعيشه المجتمع ، والوضع المؤلم الذى تتردى فيه الامة لا ينفع فيه التذمر والشكوى ، وانما هو في حاجة الى الثورة والتغيير والموت في سبيل مثل هذه الاهداف خير من الحياة في جبن ومذلة . وتتخذ ظاهرة الطباق طريقها للتعبير عن هذه الثورة :

الى اى حين انت في زى محرم
وحتى متى في شقوة والى كم
والا تمت تحت السيوف مكرما
تمت وتقاسي الذل غير مكرم
فثب واثقا بالله وثبة ماجد
يرى الموت في الهيجا جنى النحل في الفم(١٩)

وكان المتنبي كان يحس ان الزمن بغذ السير دون أن يستطيع تحقيق شيء من مطامحه ، ودون ان ان يستطيع ان يبدل او يغير من الامر شيئا . فاذا به يثور على نفسه التي تلقي الشعر امام اناس لا يستحقونه فيشغلها ذلك عن طلب المعالي . وتحس بنفسيته القلقة المعذبة ترتجف خوفا وهي تشعر بان الشباب اخذ يولي وان الايام التي مرت لن تعود ، وان الشيخوخة والعجز عرفا طريقهما اليه وان العد التنازلي للعمر قد بدا . هذه الصور جميعها

(١٥) ديوانه ١ : ٣٢٠ .
(١٦) ديوانه ٤ : ٢٩
(١٧) ديوانه ٤ : ٧٠
(١٨) ديوانه ٤ : ٣٩
(١٩) ديوانه ٤ : ٣٢

والمقابلات فيما بينها يقدمها المتنبي معتمدا على الطباق في نقل عاطفته :

الى كم ذا التخلف والتواني
وكم هذا التمادى في التمادى
وشغل النفس عن طلب المعالي
ببيع الشعر في سوق الكساد
وما ماضي الشباب بمسترد
ولا يوم يمر بمستعاد
متى لحظت بياض الشيب عيني
فقد وجدته منها في السواد
متى ما ازددت من بعد التناهي
فقد وقع انتقاصي في ازديادى(٢٠)

ثم تاخذ هذه الحياة التعسة الحزينة تحفر خطوطها وآثارها العميقة في نفس المتنبي وتنعكس واضحة في شعره : فاذا هو الشعر اليائس الحزين ؛ شعر الشكوى والحرمان والمرارة ، رغم ان هناك خيطا رفيعا من الامل يراوده بين الحين والاخر ولكنه أمل باهت يضيع وسط خضم هائل من المصائب والعقبات . واذا ظاهرة الطباق تبدو واضحة معبرة عن هذه الروح الهائمة المضطربة :

اظمتني الدنيا فلما جئتها
مستسقيا مطرت علي مصائبا
وحببت من خوض الركاب بأسود
من دارس فغدوت امشي راكبا(٢١)

واذا نظرته التشاؤمية تطغى على رؤيته للاشياء ، واذا هي ردة فعل لنفسيته المتناقضة ، واذا الطباق يخدم فنه في هذه الناحية خدمة جلى ، فالمراة في نظره لم تعد ذلك الضوء الباهر الذى يسبي القلوب ويأخذ بالعيون ، وانما اضحت ضياء مبطنا بالظلام :

ومن خبر الغواني فالغواني
ضياء في بواطنه ظلام(٢٢)

وانقلب وفاؤها في نظر المتنبي الى عذر متاصل ، ورضاها الى حقد أزلي :

اذا غدرت حسناء وفت بعهدها
فمن عهدها ان لا يدوم لها عهد
وان عشقت كانت اشد صبابة
وان فركت فاذهب فما فركها قصد
وان حقدت لم يبق في قلبها رضا
وان رضيت لم يبق في قلبها حقد(٢٣)

وانقلب الشباب الى لهو وسكر ، وتحول الشيب الى هم وآلام . ومن ثم فالحياة في حقيقتها ليست سوى موت دائم :

اذا كان الشباب السكر والشيـ(م)
ـب هما فالحياة هي الحمام(٢٤)

وتستمر حياة المتنبي بين المد والجزر ، لايكاد يرى الامل حتى يفاجئه اليأس ، ولا يكاد يستشعر الراحة حتى يحس بالشقاء من جديد . ويقع على بدر بن عمار فيعثر لديه على الهدوء والراحة النفسية . ويخيل اليه انه عثر على ضالته ، فانطلق يعبر عن فرحته تلك تعبيرا قويا اخاذا :

احلما نرى ام زمانا جديدا
ام الخلق في شخص حي اعيدا(٢٥)

ويغرم بشجاعة بدر وكرمه فيعمد الى الطباق يشركه للتعبير عن اعجابه :

كأنك بالفقر تبغي الغنى
وبالموت في الحرب تبغي الخلودا

ولكن الأمور جرت على غير ما يشتهي . فاصطدمت آماله بصخرة اليأس ، واضطربت احواله لدى بدر . ويتألم عندما يحس ان بدرا يقرب خصومه ويستمع الى حاسديه ويتحسر عندما يشعر ان امله العظيم اخذ في التلاشي . وان السنوات التي قضاها لدى بدر كانت مجرد خدعة خدعته بها الحياة . فينطلق لسانه معبرا عن آلامه وشكواه من الحساد والشعراء . ويعمد الى الطباق لينقل اهواء نفسه المتألمة :

أرى المتشاعرين غروا بذمي
ومن ذا يحمد الداء العضالا

(٢٠) ديوانه ١ : ٣٥٥
(٢١) ديوانه ١ : ١٢٥
(٢٢) ديوانه ٤ : ٧٢
(٢٣) ديوانه ٢ : ٤
(٢٤) ديوانه ٤ : ٧٢
(٢٥) ديوانه ٣ : ٢٥٣

ومن يك ذا فم مر مريض
يجد مرا به الماء الزلالا(٢٦)

ويحس المتنبي بانقلاق من جديد ، واذا هو يشرح احواله النفسية لبدر فتطغى هذه الأحوال على مدحه له ، واذا انطباق ايضا يطغى على ابياته فينقل احوال نفسه القلقة التي لا تستقر :

الفت ترحلتي وجعلت ارضي
قتودي والغريري الجلالا
فما حاولت في ارض مقاما
ولا أزمعت عن ارض زوالا
على قلق كأن الريح تحتي
اوجهها جنوبا او شمالا

ويرحل المتنبي عن بدر، هاربا بكرامته ،منقبا من جديد عن اشخاص جدد يجد لديهم بعض آماله ويحققون له بعض طموحاته . ولكن الطعنة التي اصابته لدى بدر ظلت تؤثر في نفسه ، وظل اليأس ينحت في صخرة طموحه العظيم . فبدا في فنه بعد اتصاله ببدر حزينا يائسا مستسلما . واذا فلسفته الحزينة هذه تنساب في فنه ، تشعر بنهاية كل شيء . وليس على الانسان والحالة هذه الا أن يعيش لحظته . واذا الطباق لديه يشترك في التعبير عن هذه الفلسفة :

انعم ولذ فللامور اواخر
ابدا اذا كانت لهن اوائل
ما دمت من ارب الحسان فانما
روق الشباب عليك ظل زائل
للهو اونة تمر كأنها
قبل يزودها حبيب راحل
جمع الزمان فلا لذيذ خالص
مما يشوب ولا سرور كامل(٢٧)

وكان المتنبي احس بطبعه الصادق أن الثورة التي فجرها بدأ لهيبها يخمد ويفتر ، فانطلق يتغنى ثورته من جديد . ولكن غناءه هذه المرة كان غناء فاترا حزينا ؛ وكأنه مواساة لنفسه المصابة وقلبه المنكود . واخذ الطباق دوره هنا في التعبير عن ثورته الصامته :

(٢٦) ديوانه ٣ : ٢٦٠
(٢٧) ديوانه ٣ : ٢٥٣

واذا اتتك مذمتي من ناقص
فهي الشهادة لي بأني كامل
من لي بفهم أهيل عصر يدعي
ان يحسب الهندي فيهم باقل(٢٨)

واخذت فلسفته الحزينة تطبع شعره بطابعها ، فبدت في مدحه وفي غزله وفي هجائه وفي رثائه . واستمدت هذه الفلسفة من الموت سببا للحياة الفضلى ، فحياة الانسان طالت ام قصرت مصيرها الى النهاية ، ومن ثم عليه ألا يبخل بها في سبيل المجد والقيم والمثل العليا :

كثير حياة المرء مثل قليلها
يزول وباقي عيشه مثل ذاهب(٢٩)
اذا غامرت في شرف مروم
فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في امر حقير
كطعم الموت في امر عظيم(٣٠)

وتنساب هذه الفلسفة في رثائه لجدته . واذا المرثية قطعة من الحزن الصامت والألم الدفين ، واحساس عميق بأن طاقاته وقدراته لها حدود لا تستطيع أن تتعداها . ويلعب الطباق هنا دورا بارزا في نقل عاطفته الحزينة ؛ وثورته الدفينه الصامتة :

الا لا ارى الأحداث حمدا ولا ذما
فما بطشها جهلا ولا كفها حلما
الى مثل ما كان الفتى مرجع الفتى
يعود كما ابدى ويكرى كما ارمى
واني لمن قوم كأن نفوسهم
بها انف ان تسكن اللحم والعظما
فلا عبرت بي ساعة لا تعزني
ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما(٣١)

٢ ـ في بلاط سيف الدولة بحلب

ما كاد المتنبي يقع على سيف الدولة حتى احتفلت نفسه بهذا اللقاء ، ونسي نفسه او كاد ، واختفت اغانيه بفتوته وقوته . وكأنه وجد في سيف

(٢٨) ديوانه ٣ : ٢٦٠
(٢٩) ديوانه ١ : ١٥٠
(٣٠) ديوانه ٤ : ١١٩
(٣١) ديوانه ٤ : ١٠٢

الدولة كل ما يعتمل في اعماقه من طموحات . فالقى في مديحه كل نفسه وكل عواطفه وأفكاره . واندفع يتغنى عظمة سيف الدولة وجهاده القومي . وتدفق شعره حماسة وعاطفة .

ونلاحظ في هذه الفترة ان التجربة الشعورية التي حفلت بالالم والمرارة لقيت هدوءا في بلاط سيف الدولة . واخذت الثورة في نفس المتنبي تختفي شيئا فشيئا ليحل مكانها فخر واستعلاء . وكانه اعتقد في نفسه ان لحظة التشفي من الخصوم والحساد والاعداء قد حانت ، وان دوره قد جاء ليحقق كل ما طمحت اليه نفسه . ومن ثم بدات تظهر في شعره عواطف الفوز في الدنيا ، ومشاعر الفرحة بعثوره على ضالته . وكان اعظم ما تغناه الشاعر جهاد الامير ومعاركه مع الرومان . فقد راى في انتصارات سيف الدولة انتصارات للعرب جميعا ، وارجاعا للمجد العربي الضائع واستعادة للمكانة والكرامة العربية . وكان هذه النفس التي تعودت الشقاء والالم ، وجدت الفرحة والسعادة اليها منفذا . فاذا هي تتغنى البطولات كاجمل ما يكون التغني ، واذا المتنبي يلجأ الى الطباق كي يسعفه في نقل هذه الطفرة وتصويرها:

على قدر اهل العزم تاتي العزائم
وتاتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها
وتصغر في عين العظيم العظائم
يكلف سيف الدولة الجيش همة
وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم
ويطلب عند الناس ما عند نفسه
وذلك مالا تدعيه الضراغم
هل الحدث الحمراء تعرف لونها
وتعرف اى الساقيين الغمائم
سقتها الغمام الغر قبل نزوله
فلما دنا منها سقتها الجماجم
ضممت جناحيهم على القلب ضمة
تموت الخوافي تحتها والقوادم
بضرب اتى الهامات والنصر غائب
وسار الى اللبات والنصر قادم(٢٢)

وفي بلاط سيف الدولة يكثر حساد الشاعر ويزدادون . وتجلب النقمة عليه حتى من اقرباء الامير . ولكن ثقته العظيمة بسيف الدولة كانت تملأ صدره وتطغى على تفكيره . فاذا هو يعلن هذه الثقة امام الامير ، ويقف متحديا الحساد معرضا بهم ساخرا منهم ، واذا الطباق يعمل اثره في تصوير مشاعر من الكراهية المقيتة للحساد والثقة المفرطة بالامير .

اذا الجود اعطى الناس ما انت مالك
ولا تعطين الناس ما انت قاتل
اني كل يوم تحت ضبني شويعر
ضعيف يقاويني قصير يطاول
لساني بنطقي صامت عنه عادل
وقلبي بصمتي ضاحك منه هازل
واتعب من ناداك من لا تجيبه
واغيظ من عاداك من لا تشاكل
وما التيه طبي فيهم غير انني
بغيض الى الجاهل المتعاقل
واكبر تيهي انني بك واثق
واكثر مالي انني لك آمل
لعل لسيف الدولة القرم هبة
يعيش بها حق ويهلك باطل
رميت عداه بالقوافي وفضله
وهن الغوازي السالمات القواتل(٢٣)

ولكن هذه الثقة العظيمة ، والتي حاول المتنبي ان يقنع بها نفسه طيلة تسع سنوات اخذت تتزعزع شيئا فشيئا . واحتمل المتنبي الكثير وعمل على الاتزداد الامور سوءا . ولكن يبدو ان الامير اخذ يمنّ على الشاعر بعطاياه فاله هذا كثيرا ، واتجه الى اميره معاتبا ، ملمحا الى تغير قلب الامير عليه: ونلاحظ هنا ان المتنبي يشرك الطباق ليخدم لغة العتاب هذه فيجيد استخدامه للتعبير عن مشاعره اى اجادة :

ارى ذلك القرب صار ازورارا
وصار طويل السلام اختصارا
تركتني اليوم في خجلة
اموت مرارا واحيا مرارا
اسارقك اللحظ مستحييا
وازجر في الخيل مهرى سرارا(٢٤)

---

(٢٢) ديوانه ٣ : ٢٧٨

(٢٣) ديوانه ٣ : ١١٧

(٢٤) ديوانه ٢ : ٩٤

فاذا ما استندت لغة العتاب عند المتنبي الى الطباق الذي يناسبها : ـ

اهذا جزاء الصدق ان كنت صادقا
اهذا جزاء الكذب ان كنت كاذبا
وان كان ذنبي كل ذنب فانه
محا الذنب كل الذنب من جاء تائبا(٢٥)

ولكن سيف الدولة يزداد بعدا عن صديقه الشاعر ويصغي الى الوشاة والحاسدين . ويشعر المتنبي ان الامور تسير في غير صالحه ، فيتجه الى الامير وكله الم وحزن . وفي هذه المرة لايرجو ولا يستعطف ؛ وانما يعرض قضيته العادلة امام قاض هو الخصم والحكم في آن واحد . وتطل الثورة في عينيه من جديد ؛ ويحس ان كرامته في الميزان فعليه ان يصونها ، ولو كلفه ذلك ان يبدأ التشرد من جديد . ولا ينسى ان يلمح للامير انه سيرحل ، وان الامير هو الخاسر في النهاية . ونلاحظ هنا ان ظاهرة الطباق تطغى على شكوى المتنبي وتملأ ثورته المطلة برأسها ؛ وتشترك بفعالية في تصوير نفسية المتنبي في اضطرابها وحزنها وقلقها وخوفها وتمردها :

يا أعدل الناس الا في معاملتي
فيك الخصام وانت الخصم والحكم
أعيذها نظرات منك صادقة
أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
وما انتفاع أخي الدنيا بناظره
اذا استوت عنده الانوار والظلم
أنا الذي نظر الاعمى الى ادبي
وأسمعت كلماتي من به صمم
انام ملء جفوني عن شواردها
ويسهر القوم جراها ويختصم
يا من يعز علينا أن نفارقهم
وجداننا كل شيء بعدكم عدم
اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا
ألا تفارقهم فالراحلون هم (٢٦)

ويخرج المتنبي من بلاط سيف الدولة هائما على وجهه من جديد ؛ باحثا عن مستقر جديد لنفسه المعذبة ، منقبا عن موطن آخر لعله يحقق فيه طموحاته العظيمة :

اهم بشيء والليالي كأنها
تطاردني عن كونه واطارد
وحيد من الخلان في كل بلدة
اذا عظم المطلوب قل المساعد(٢٧)

٣ ـ في مصر :

اختلفت نفسية المتنبي في مصر عنها في حلب . فهو آسف حزين لفراق سيف الدولة وساخط شديد السخط على المفسدين الذين اوقعوا بينهما ؛ وناقم على حظه العاثر الذي رمى به الى احضان كافور . ثم هي نفسية طابعها الاعتزاز بالنفس والتغني بالذات . ولعل هذه الفترة في حياته هي اكثر الفترات تشاؤما وسخطا .

ان خيال سيف الدولة ، وصورة حلب مازالا ماثلين امامه . وان مكانته العظيمة التي حظي بها هناك من المستحيل تعويضها هنا . وأخيرا وليس آخرا فان الهدوء والاستكانة في مصر كانا يؤلمان طموحه ويحدان من نفسيته المتوثبة المتحفزة . ومن الاسف والحزن والنقمة والثورة ارتفع غناء المتنبي منطلقا من القلب . وقد اختفت منه تلك الدفقات العنيفة القوية المتفجرة ليحل مكانها نغمات رقيقة هادئة وادعة . وحيثما تقرأ في شعره بمصر ، نجد الاسى العميق والحزن والاغتراب ، والكآبة المطبقة والاهم من هذا جميعه اننا نجد الحنين يلازمه للعودة الى تلك الايام الخوالي حيث بطولات سيف الدولة ، وحيث ندوات حلب ولياليها ؛ وحيث للحياة هناك طعم آخر لا يجده هنا في مصر . ولعل هذا الاضطراب العميق الذي عاشه في مصر وهذا الحنين المتصل الذي لم ينقطع لحظة لسيف الدولة وحلب ، هو ما أملى على المتنبي قصيدته الاولى في مدح كافور ، كما أنه هو الذي دفعه الى استخدام الطباق ليعبر عن هذا التناقض النفسي العنيف ، وهذه النفسية الرافضة لواقعها الجديد :

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا
وحسب المنايا ان يكن أمانيا
تمنيتها لما تمنيت ان ترى
صديقا فأعيا او عدوا مداجيا

(٢٥) ديوانه ١ : ٢٠ .
(٢٦) ديوانه ٢ : ٢٦٦ .
(٢٧) ديوانه ١ : ٢٧٠ .

اذا كنت ترضى ان تعيش بذلة
فلا تستعدن الحسام اليمانيا
حبيتك قلبي قبل حبك من نأى
وقد كان غدارا فكن انت وافيا
وللنفس اخلاق تدل على الفتى
أكان سخاء ما أتى ام تساخيا
أقل اشتياقا أيها القلب ربما
رايتك تصفي الودمن ليس صافيا(٣٨)

ثم نجد هذا الحنين والشوق لسيف الدولة ينساب في معظم مدائح المتنبي لكافور ونلاحظ ان ظاهرة الطباق تبدو واضحة جلية حيثما نقرا . وكأن هذه الظاهرة هنا كانت تمثل في نفسه الصراع بين أمرين احدهما شوق وحنين يعيشان في اعماقه نحو سيف الدولة وبطولاته وامجاده والآخر شكوى مريرة من هذه الحياة الساكنة الصامتة صمت القبور في مصر ، حيث لا بطولات ولا امجاد ولا رجل مبادىء يمثل ما مثله سيف الدولة في ناظريه . يقول :

اود من الأيام ما لا تسوده
واشكو اليها بيننا وهي جنده
يباعدن حبا يجتمعن ووصله
فكيف بحب يجتمعن وصده
ابى خلق الدنيا حبيبا تديمه
فما طلبي منها حبيبا ترده
واسرع مفعول فعلت تغيرا
تكلف شيء في طباعك ضده(٣٩)

فتحس بالمرارة تملأ نفسه وهو يرجع بذاكرته الى احبته الحقيقيين الذين ذهبوا ولن يعودوا . ونلمس هذا الندم والأسف والشكوى تغمر نفسه ، فالايام ابت الا ان تحول بينه وبين احبته ووقفت بينه وبين تحقيق أمانيه ، وكأنها بخلت عليه بلحظات سعادة يقضيها مع صحبه ورفاقه هناك . واستطاع المتنبي باستخدام الطباق هنا ان ينقل انفعالاته واحاسيسه ويحدثنا باشواقه وحنينه واحاديث نفسه فنقل الينا عالمه الداخلي المضطرب نقلا فنيا رائعا . ولقد ساهم الوضع الغريب الذى كان يعيشه المتنبي في مصر في صقل نفسيته وتهذيبها . واضفى على أدبه مسحة من الحزن ، او قل من الفلسفة الحزينة ، المتشائمة . فالحياة ليست اكثر من مجموعة من المتناقضات .

والانسان يسعى باستمرار ليغير من طبيعة الأشياء ، فيساهم مع الزمن في حربه للانسان فالانسان لا يكتفي بما يصيبه من مصائب الدهر بل يسعى الى مساعدة الدهر ضد اخيه الانسان . وهذا الصراع الأزلي بين البشر ما كان ينبغي ان يكون لو فكروا أن الامور التي يتصارعون من اجلها هي اتفه واسخف من ان يفنوا في سبيلها وعظمة المتنبي هنا تكمن في انه استطاع ان يرقى بفنه ليعبر عن هذه المتناقضات جميعا :

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا
وعناهم من امره ما عنانا
وتولوا بغصة كلهم منه وان
سر بعضهم احيانا
ربما تحسن الصنيع لياليه
ولكن تكدر الاحسانا
وكانا لم يرض فينا بريب الـ
ـدهر حتى اعانه من اعانا
كلما انبت الزمان قناة
ركب المرء في القناة سنانا
ومراد النفوس اصغر من ان
تتعادى منه وان تتفانى
غير ان الفتى يلاقي المنايا
كالحات ولا يلاقي الهوانا(٤٠)

ولم يحتمل المتنبي هذا الشقاء التعس الذى عاشه في مصر . واخذت نفسه المتمردة تلح عليه من جديد ان يرفض واقعه وان يبحث عن واقع جديد ، لعل وعسى ان يجد مكانا افضل او حياة فيها بعض العزاء .

٤ ـ المتنبي بعد خروجه من مصر .

اذا كان المتنبي قد لعن كافورا في سره في أثناء وجوده بمصر ، فلا بد ان يلعنه علانية بعد خروجه منها . فإن هذه النفس الملأى حقدا وكراهية لهذا الرجل ، لم تشأ ان تترك كافورا وحاله دون ان تعبر عن مشاعرها تجاهه . واذا هجاء المتنبي لكافور ينطلق حمما ملتهبة لينقل صراعه الداخلي الذى

(٣٨) ديوانه ٤ : ٢٨١
(٣٩) ديوانه ٢ : ١٩ .
(٤٠) ديوانه ٤ : ٢٢٩

عاشه طيلة المدة التي قضاها في مصر . واذا مدائحه له كذب ونفاق ، واذا ابتساماته في وجهه زيف ورياء . واذا هو باناشيده واغانيه له لم يكن في الواقع الا هاجيا هازلا . واذا هذا التناقض ينقله المتنبي فنا ويسعفه الطباق كثيرا في هذا المجال :

تظن ابتساماتي رجاء وغبطة
وما انا الا ضاحك من رجائيا
وتعجبني رجلاك في النعل انني
رأيتك ذا نعل اذا كنت حافيا
وانك لا تدرى الونك أسود
من الجهل ام قد صار ابيض صافيا
ولولا فضول الناس جئتك مادحا
بما كنت في سرى لك هاجيا
فاصبحت مسرورا بما انا منشد
وان كان بالانشاد هجوك غاليا
ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة
ليضحك ربات الحجال البواكيا(٤١)

وفي العراق تهدأ نفس المتنبي قليلا . ولكن حياته في مصر ظلت تلاحقه . واذا كان قد خرج منها غاضبا ساخطا على كافور وعلى نفسه ايضا ، فانه قد ترك فيها له اصدقاء خلّص واحبة لم يستطع ان ينساهم . ويتناهى الى سمعه وفاة ابي شجاع فاتك ــ وكان صديقا وفيا له ــ فاذا الوفاء يدفع الشاعر الى رثاء هذا القائد الشجاع الذى وقف الى جانبه حين فقد الأصدقاء وندر الرفاق . واذا فلسفته الحزينة التشاؤمية التي صحبته في مصر تلحق به في العراق . واذا ثورته الصامتة تعود من جديد ، وبين الصمت والجهر ، وبين الاستكانة والاقدام ، تتدفق عاطفة الشاعر في نفثات شديدة التعبير عن اليأس الانساني تجاه القضاء . ويلعب الطباق هنا دورا هاما في تصوير فلسفة المتنبي التشاؤمية الحزينة :

الحزن يقلق والتجمل يردع
والدمع بينهما عصي طيع
يتنازعان دموع عين سهد
هذا يجيء بها وهذا يرجع
النوم بعد ابي شجاع نافر
والليل معي والكواكب ظلع
اني لأجبن عن فراق احبتي
وتحس نفسي بالحمام فاشجع

(٤١) ديوانه ٤ : ٢٩٤

ويزيدني غضب الاعادى قسوة
ويلم بي عتب الصديق فأجزع(٤٢)

ويترك المتنبي العراق الى فارس مادحا ابن العميد ثم عضد الدولة البويهي . ولم تستقر به الأمور في فارس كثيرا « فالفتى العربي فيها غريب اليد واللسان » وفضل العودة الى العراق من جديد ليلقى مصرعه في دير العاقول .

مما تقدم لاحظنا ان حياة المتنبي كانت فريدة من نوعها ، فهي مضطربة يائسة باستمرار . وحيثما اتجه او تنقل كانت الأمور تزداد في وجهه تعقيدا . كانت آماله تتحطم ولكن طموحه كان لايتوقف . ومن الفشل والاخفاق كان يستمد العزيمة والانطلاق . ومن هذا جميعه انطلق غناؤه ، « فالانفعالات علامات للمواقف »(٤٣) ، وحياته كلها مواقف تثير الانفعال . ومواضع الانتقال في شعره حالات نفسية ، ومن ثم ينبغي الا نتوقع منه في شعره ان يسير على نسق واحد مضطرد . ونعتقد ان هذا هو ما اوجد لديه ظاهرة الطباق .

فالظاهرة لديه تعبير عن حالة نفسية ، ومن هذا قد نستطيع ان نعلل كثرتها ؛ فالمتنبي لم يكن يتعمدها ، وانما هي حالات شعورية كانت تصدر من نفسه وقلبه مما تعكس باطنه وتصور اعماقه . ومن هنا جاء تأثيرها العظيم . فاقدر الناس تأثيرا هم من يكونون في حال من الانفعال ، واقدرهم تعبيرا عن الشقاء من كان الشقاء في نفسه ، واقدرهم تعبيرا عن الغضب من استطاع ان يملأ بالغضب قلبه(٤٤) .

ولحظات الابداع غالبا ما تكون مصحوبة بأزمات انفعالية (٤٥) . واذا كان المتنبي لم يوفق في بعض الأحيان في استخدام هذه الظاهرة أو في جعلها تعبر عن نفسيته المتناقضة ، فما ذلك الا لأن العمل الفني تنظيم معقد وذو سمة متراكبة مع تعدد في المعاني والعلاقات (٤٦) ، ولا ينبغي ان نطالبه بالكمال وعلينا ان نردد مع جوته « العظماء هم من يبذون اكبر من سواهم ، وللاكابر كالاصاغر فضائل ورذائل على أوسع مقدار وان امكن ان تكون على نسبة واحدة » (٤٧) .

(٤٢) ديوانه ٢ : ٢٦٨
(٤٣) مبادىء النقد الادبي ١٨٦ .
(٤٤) الشعر ــ ارسطو ٩٨
(٤٥) The sense of Beauty 244.
(٤٦) نظرية الادب ٢٩
(٤٧) الحياة والحب ١٥٥ .

مراجع البحث العربية

١ ـ أبو الطيب المتنبي : د . بلاشير ترجمة الدكتور ابراهيم الكيلاني .
منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي دمشق ١٩٧٥م

٢ ـ الحياة والحب : لودفج ، اميل ترجمة عادل زعيتر دار المعارف بمصر ١٩٥٢ م .

٣ ـ ديوان المتنبي : شرح ابي البقاء العكبرى تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابيارى وعبد الحفيظ شلبي مطبعة مصطفى البابي الحلبي القاهرة ١٩٧١ م .

٤ ـ الشعر : ارسطو طاليس ـ تحقيق وترجمة د . شكرى عياد ـ دار الكاتب العربي ـ القاهرة ١٩٦٧ م .

٥ ـ الفصول : عباس محمود العقاد دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٩٦٧ م

٦ ـ مبادىء النقد الادبي : ا . ا . رتشاردز ترجمة د . مصطفى بدوى ـ وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ المؤسسة المصرية العامة القاهرة .

٧ ـ مسائل فلسفة الفن المعاصرة : جان ماري جوتيو ترجمة الدكتور سامي الدروبي دمشق ط ٢ ١٩٦٥ م .

٨ ـ مطالعات في الكتب والحياة : عباس محمود العقاد ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ط ٢ ١٩٦٦ م .

٩ ـ مع المتنبي : الدكتور طه حسين دار المعارف بمصر ١٩٦٢ م .

١٠ـ نظرية الادب : رينيه ويليك واوستن دارين الطبعة الثالثة ١٩٦٢ ـ ترجمة محيي الدين صبحي .

الدوريات

١ ـ مجلة المجمع العلمي العربي ـ دمشق مجلد ٢٢ ، ١٩٤٧ .

٢ ـ مجلة المقتطف ـ عدد يناير ١٩٣٦ م

٣ ـ مجلة الهلال ـ عدد اغسطس ١٩٣٥ م .

المراجع الاجنبية

1- Aber Crombie, Samuel :
Principles of Literary Criticism, London; Victor gollency 1932.

2- Clay. F.
The Origin of the Sense of Beauty, London, John Murry 1917.

3- Eliot, T.S.
The Use of the Poetry and the Use of Criticism, Faber and Feber Ltd. 1964.

4- Langfield. H.S.
Feelings and Emotions by 34 Psychologists, Clark Univ. Press 1928.

5- Schopenhauer, Arthur :
The Art of Literature, (Selected and translated by T. Balley Saunders, M.A.) London : George Allen and Unwin Ltd. 1891.

WWW.ATTAWEIL.COM